# الفرقان
## في تفسير القرآن
## بالقرآن والسُّنة

# الفرقان

## في تفسير القرآن

### بالقرآن والسُّنة

الجزء السابع والعشرون

سماحة الشيخ

**الدكتور محمد الصادقي**

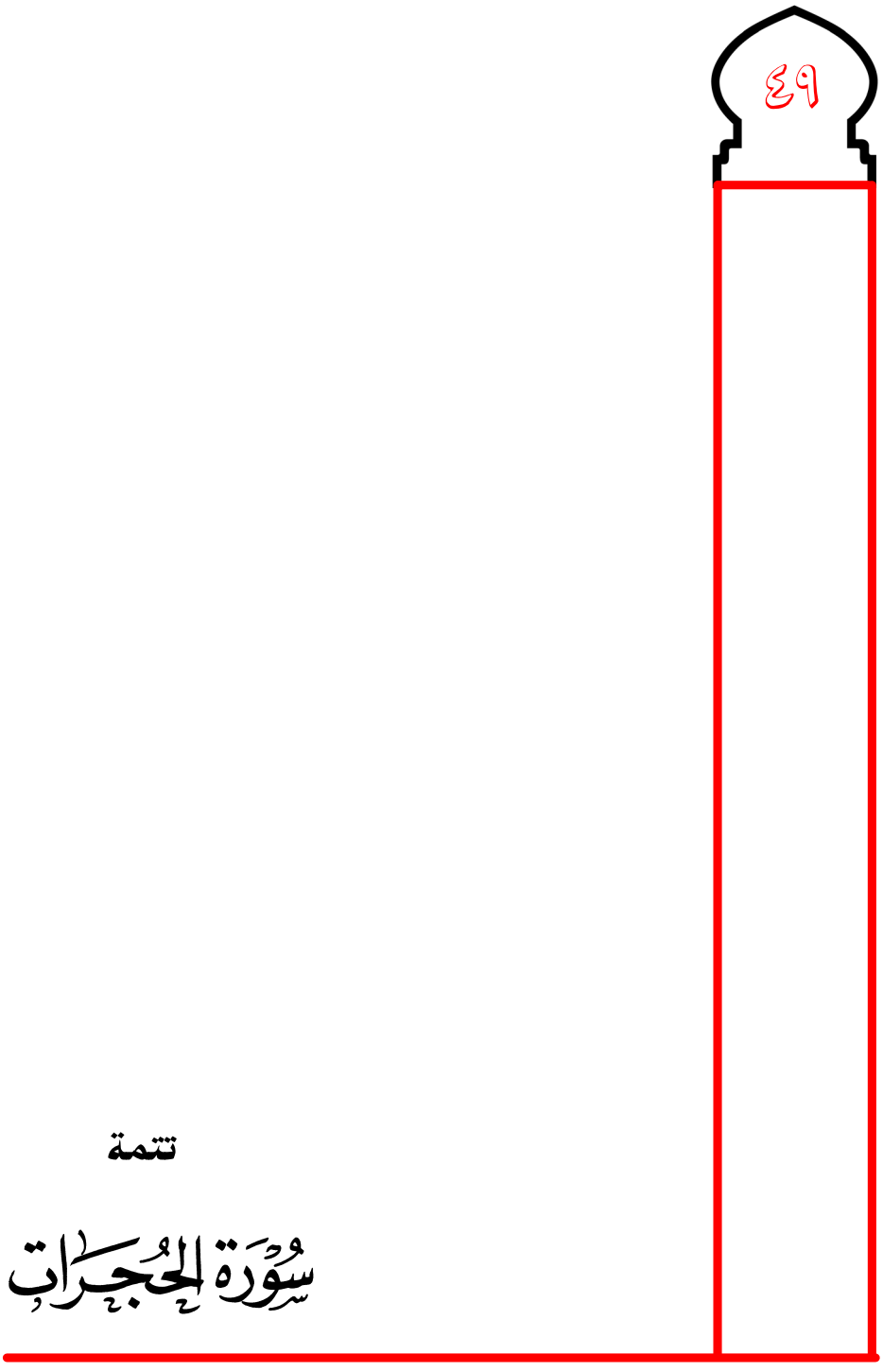


تتمة

سُورَةِ الحُجُرَاتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ . . .﴾:

. . هتاف حبيب للمؤمنين، باستجاشة روح الإيمان، يستيقظ فيهم نباهة الحنان أن يكونوا - مع بعض - عقلاء حلماء أزكياء أذكياء، فلا يسخر قوم من قوم ولا نساء من نساء، ولماذا يسخرون، ومم يستهزئون، ألأنهم خير منهم في ميزان الحق فبه يفتخرون فيسخرون ممن هو أدنى منهم؟ وهذا من شيم الجاهلين، فلا يستهزئ المؤمن العارف ولو بغير المؤمنين الذين هو خير منهم بقين، فكيف بمن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فلماذا يهرفون - إذاً - بما لا يعرفون؟.

إن السخرية من أي إنسان والهزء به جهل عارم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1] فإذا هي تجهِّل موسى الرسول عليه السلام، لو هزأ وإن كانت من الإسرائيلين العارمين، فما هي إذاً ممن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أو هم خير على يقين؟.

إن السخرية من أي إنسان، محظور في هذا المثلث بكل زواياه، ولأن الزاوية الوسطى هي الأكثر: - أن يزعم الساخر أنه خير من المسخور منه ولذلك يسخر منه - ركز النهي في الآية بها، ثم آية البقرة عممت النهي: إن السخرية جهالة ولو كانت من نبي ولن يكون، فكيف ممن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

إنه ليست السخرية على أية حال إلا جهالة، فلو أنه أدنى منك ولحد الكفر، فليست للسخرية دور مع الكافر، فإنها تزيد في نفوره وكفره، إذ قد يحتج على الساخر أن ليس له برهان، فلذلك يسخر مني، أم أنه رذيل يترذل بمن يراه أدنى منه، بدل أن يحاول في علاجه بالحكمة والموعظة الحسنة، فلا لك كمؤمن أن تسخر من أحد وإن كان يسخر منك، اللهم إلا جزاء



(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

السخر بسخر مثله، عقاباً وفاقاً وعند الإياس من انتباهه عن غفلته وغفوته، والإيقان أنه يعاند مقصراً، فليست السخريةُ الجزاءُ - إذاً - جهالة، بل وقد تكون حسناً أو واجباً وكما من نوح: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[١] فما لبثوا أن سخرت منهم أمواج الطوفان: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

وكيف ركز النهي هناك على «قوم من قوم أو نساء من نساء» والسخرية محرمة وإن بين قوم ونساء؟ لأن هزء الجنس من جنسه هو طبيعة الحال، قضية التحاسد التكاثر[٣]، وكما تشير بنكاية الهزء الجماهيري وأنه أتعس من أن يسخر شخص من شخص، فالآية تحمل أنحس صور الهزء: أن يكون ممن علَّه خير من الهازىء، ومن قوم أو نساء، وإن كان سواهما من هزء محرماً دونه، كما تفيدنا آية البقرة وأضرابها، فلا يسخر شخص من شخص[٤] وإن عسى أن يكون الساخر خيراً.

هذه! ومن ثم استجاشة أخرى هي أشمل وأحرى، استيحاء من روح الأخوة الإيمانية، التي تجعل من المؤمنين نفساً واحدة - فـ:

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾:

فإن من يلمز ويعيب أخاه المؤمن، هو لامز نفسه، لأنه منه أو هو هو،

(١) سورة هود، الآية: ٣٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.
(٣) الدر المنثور: أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في آية السخر قال: نزلت في قوم من بني تميم استهزؤوا من بلال وسلمان وعمار وخباب وصهيب وابن فهره وسالم مولى أبي حذيفة.
(٤) في تفسير علي بن إبراهيم القمي أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب وكانت زوجة رسول الله ﷺ وذلك أن عائشة وحفصة كانتا تؤذيانها وتشتمانها وتقولان لها: يا بنت اليهودية، فشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال لها: ألا تجيبهما؟ فقالت: بماذا يا رسول الله ﷺ؟ قال: قولي إن أبي هارون نبي الله وعمي موسى كليم الله، وزوجي محمد رسول الله ﷺ فما تنكران مني؟ فقالت لهما، فقالتا: هذا علمك رسول الله ﷺ فأنزل الله في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ...﴾ [الحُجرَات: ١١].

لا يفصل بينهم إلّا فاصل الجسم، والروح واحدة، فكيف يعيب مؤمن نفسه، اللهم إلا أن تحاول علاج أخيك كما تعالج نفسك، بكل حنان وأمان، ودون إيذاء وتشهير، وإنما كمرآة تريك مساوئك دون أن تجاهر بها لسواك فإن «المؤمن مرآة المؤمن».

هذه - وكما توحي ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بأن لمز البعض لمزٌ للكل، فإنه مسٌّ من كرامة الإيمان، فهل من عاقل بعد يلمز أخاه بعد أنه نفسه حيث الوحدة الإيمانية، فلذلك تتركز الاستجاشة هنا وهناك بروح الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ. . .﴾ وشعور الاندماج في نفس واحدة ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لحد:

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ﴾:

فالنَبزَ هي اللقب بعينه، فالتنابز هي التلاقب، أن يسمي بعضنا بعضاً بما يدل على ذم بسوء[1]، وإنما الألقاب الطيبة الحنونة هي التي تليق بالتبادل بين المؤمنين، مهما كانت هناك سيئات، فالمؤمن يستر القبيح ويظهر الجميل، كما الله، تخلقاً بأخلاق الله، ولقد غير رسول الله ﷺ ألقاباً مزرية تبقَّت من الجاهلية للبعض ممن آمن، بأسماء أو ألقاب طيبة، ذوداً عن كرامة المؤمنين ما يزريهم، فليلتزم المؤمن اسم الإيمان لنفسه وأنفسه المؤمنين، فإنه أنفَس من أي نفيس، فضلاً عن أن يتنابز بالألقاب السوء، فـ:

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾:

إن تنبز أخاك بلقب يجانب الإيمان، اسم هو وصم الفسوق اللّاإيمان،

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام في حديث له لما قيل له في شعر: أنشدنيه أبو العتاهية لنفسه قال: هات اسمه ودع هذا - أن الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ﴾.
وفي الدر المنثور - أخرج جماعة من الجامعين عن أبي جبيرة بن الضحاك قال: فينا نزلت في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ﴾ [الحُجرَات: ١١] قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا: يا رسول الله ﷺ! إنه يكره هذا الاسم فأنزل الله: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ﴾.

ومن ثم تتَّسم أنت المنابز أيضاً باسم الفسوق بعد الإيمان، لأنك فسقت عن شريطة الإيمان، فعليك أنت المنابز، وذلك الساخر أو اللامز، عليكم أن تتوبوا إلى الله:

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

أنفسَهم وإخوانهم، حيث انتقصوا سواهم سخراً أو نبزاً أو لمزاً، فنقصوا - هم - عن أنفسهم كمال الإيمان، فالله هو المستعان.

ثم وليست السخرية واللمز والنبز دائرة مدار الواقع المعلوم - فقط - فإن كثيراً من الظن السوء حرام لأن بعض الظن إثم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾:

إن الظن السوء بين المؤمنين مع بعض يجانب روح الأخوة الإيمانية، ما يترتب عليه الآثار السوء، دون واقع الإدراك النفساني المجرد المفاجئ للإنسان دون اختيار، اللهم إلا إذا استطاع ترويض نفسه على ترك هكذا إدراك سوء أيضاً، أن يعيش الظنّ الخيرَ، إذا غلب الخير على المؤمنين، أو اللَّاظن لا خيراً ولا شراً إذا غلب الفساد، كل ذلك توقياً عما يتوقع من الوقوع في الإثم، ضابطة وقائية لكرامة المؤمنين مع بعض: ترك الظن السوء قدر الإمكان، اللهم إلا قليلاً يملك فيه دليلاً قاطعاً، لكنه لا يملَّك التجسس عنه بغية التأكد منه، أو إذا تأكد أن يفشيه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا...﴾[1] فالتجسسُ التتبعُ عن مساوئ المؤمنين محرم، والتجسس التتبع عن محاسنهم هو قضية الإيمان.

فذلك سياج آخر فوق المسبقة، حول حرمات المؤمنين، يتخطى الواقع

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

الخارجي من المعاملة السوء، إلى المشاعر والظنون تنظيفاً لها وتنزيهاً عن أن يظن بالمؤمنين سوء، وما أروح الحياة في مجتمع بريء من الظنون، طمأنينة لا تتعكر بقلق، فلا يؤخذ - إذاً - مؤمن بظِنة، ولا يحاكَم بريبة.

تلك الروح النظيفة العالية هي نبراسة الحياة الإيمانية، وهي متراسة النكبات اللّاإيمانية، وعلى حد المروي عن إمام المتقين علي عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يقلبك منه ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»[١] وذلك «إذا استولى الصلاح على الزمان وأهله ثم أساء رجل الظن برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله ثم أحسن رجل الظن برجل فقد غرر»[٢] بل يترك هنا لك الظن سوءاً وحسناً، دون أن تنفصم ضابطة الآية ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ غلب الصلاح أم غلب الفساد، ولكن عند غلَبِ الصلاح علينا أن نحسن الظن، لا أن لا نسيء فقط ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[٣].

إن واقع السوء، وفي مجتمع يغلب عليه الصلاح، إنه شبهة غير محصورة، فلتترك هذه الشبهة مخافة الوقوع في الإثم ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

وترى إذا كان البعض آثماً دون الكثير، فلماذا يجتنب الكثير، علَّه لأن الإثم ما يبطئ عن الثواب الصواب، فيدفع إلى غير الصواب، إما تهمة وإصابة بريء فواويلاه، أو فضح مسيء فإشاعة فاحشة، فلأن الكثير من الظن السوء يدفع إلى البعض الإثم، يُمنع هذا الكثير حيطة على ذلك القليل، فإن عِرض المؤمن عظيم كثير.

(١) أصول الكافي بإسناده عن الحسين بن مختار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: . .

(٢) السيد الشريف الرضي في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: . .

(٣) سورة النور، الآية: ١٢.

أو إذا كان الكثير الممنوع من الظن ما يرتب عليه الآثار، فبعضه إثم في ترتيب الآثار، لأنه قد يصادف بريئاً عن الأوزار، ولكنما الأول أولى أو هو الحق، لأن الظن السوء باختيارٍ سوءٌ أياً كان، ولأن بعضه إثم فليترك كله وقاية وحيطة على حرمات المؤمنين، وإن ما يرتب عليه الآثار كله إثم يبطئ عن الصواب، صادف بريئاً أو غير بريء، لأن فضح المسيء حرام: فـ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ نفسانياً ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ واقعياً - حيث يبطئ عن الصواب والثواب بالنسبة للمؤمنين المظنون بهم، وعجلة الحياة الإيمانية يجب أن تكون دائم الحراك سريعاً في الخير بين المؤمنين، فليجتنب ما يبطئها أو يوقفها من الظن السوء مخافة البوار: ﴿. . .وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[1].

وترى أن اجتناب الظن القليل الباقي بعد الكثير ليس واجباً كالكثير؟ كلا لأنه الظن المسنود إلى قاطع البرهان، فمجانبته إذاً خلاف البديهة، لا تمكن حتى تجب، وإنما الواجب فيه، الحفاظ على الأعراض، إعراضاً عن إفشاء ما ثبت من سوء أو التلميح به، اللهم إلّا فيما يجب أو يجوز من شهادة أو نصح أم ماذا؟

إذاً فواجب الاجتناب عن كثير من الظن حمى عن الوقوع في الإثم أحياناً، مع ما فيه من تنظيف المشاعر عن الظنون السيئة، ثم للقليل الباقي حكمه، كل حسب المصلحة الجماعية قضية الإيمان.

﴿. . .وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾: عن معايب المؤمنين، وإنما تحسسوا عن محاسنهم، إظهاراً للجميل وستراً للقبيح، فالتفتيش عما استتر من أمور الناس أو عيوبهم محظور جماعي عارم، يعكر جو الطمأنينة والراحة، ويبدله إلى الاضطراب والعاهة، سواء كان التجسس للاطّلاع الشخصي، أم

(١) سورة الفتح، الآية: ١٢.

وللإطْلاع الجماعي فأشد وأنكى، وإن كان المجسس عنه عيباً دون ريب، فكيف إذا كان صواباً يحمل إصلاحاً في زاوية أو زوايا من الحياة الجماعية الإسلامية، فيتجسس الوسواس الخناس عن صالحات من خبايا الناس، ليُطلع عليها النسناس، فيأخذوا حذرهم وأسلحتهم شاهرين على هؤلاء الناس، فتقع الواقعة الشوكاء الشوهاء، خنقاً على أية فكرة للإصلاح، في حالة جهنمية يختلقها النسناس، وليعيش حاكماً مطلق العنان على الناس دون سماح لحياة آمنة طاهرة.

إن التجسس عن أسرار المؤمنين محظور بأي لون وعلى أية حال سواء أكان حركة تالية للظن، أو بدائية لكشف العورات والتطلع إلى السوآت، وبأية غاية أو عناية أخرى حصل، وعلى أي إنسان، وإن «أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يوافي الرجل الرجل على الدين فيحصي عليه عثراته وزلاته ليعنفه بها يوماً ما»[١] وقال رسول الله ﷺ: «لا تطلبوا عثرات المؤمنين فإن من تتبع عثرات أخيه تتبع الله عثرته، ومن تتبع الله عثرته يفضحه ولو في جوف بيته»[٢] هذا! اللهم إلا غير المؤمنين الخطرين على الحياة الإيمانية، فيجسس عنهم حياداً على المؤمنين وسياجاً عما يمس من كرامتهم، أو من يشذ عن سبيل المؤمنين، فيولى ما تولى ويصلى جهنم وساءت مصيراً:

من جاسوس لصالح الفجار، أو مضلل للمسلمين، أو أي مفسد في الأرض، فيؤخذ على يديه، أو يجسس عنه تأكداً من نواياه ليوقف على حده، أو يخفف - ولا أقل - عن حدته.

وإن استنطاق الغافلين للكشف عن خباياهم تجسس، واستغابتهم ممن

(١) أصول الكافي بإسناده إلى عبد الله بن بكير عن زرارة عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

(٢) أصول الكافي بإسناده إلى محمد بن مسلم أو الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ:

يغتابهم تجسس، دون تخصص بتسلق البيوت، وإنما التكشف عن الأسرار، المختفى بها أصحابها - أيّاً كان - تجسسٌ محظور[١]، اللهم إلا فيما يحمل هامة لصالح المسلمين فرادى أو جماعات، مادياً أو معنوياً.

فالكتلة المؤمنة تعيش آمنة أمينة على أسرارها وعوراتها وبيوتها وكل خباياها وخفاياها، إلا من تخلف في سرّ له عن رتبة الإيمان، فخيف منه خطر على كتلة الإيمان، فلا سر له إذا يُحترم، إلا ما لا يناحر صالح الإيمان!.

ثم - وإذا تبين لك عن مؤمن مزرئة، أو ما لا يحب إفشاءه، فلا لك أن تغتابه:

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾: أنتم المؤمنون، مهما اختلفت درجات الإيمان ومذاهبه، ما صدقت كلمة الإيمان وإن في أدنى أدانيها، فأنتم كجسد واحد متبعض: ﴿بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ تحكم فيكم روح الإيمان الواحد، فليحضر كلٌ بعض مع الباقين، دون غياب ولا اغتياب، فلا تحكم المباغضة - فقط - بحرمة الاغتياب بل وبوجوب الانتداب أيضاً لبعض في صالحه، ومنه كف الغيبة عن بعض، ولزوم الاكتئاب لبعض إذا اغتيب أو أصيب.

إن الغيبة وهي ذكر العيب بظهر الغيب بكتابة أو إشارة أو لسان أو أياً كان، أو «ذكرك أخاك بما يكرهه» إنها إساءة إلى المغتاب إذ تغضبه إذا سمع وتخلق فيه الضغينة والعداء لمن اغتابه، وإساءة إلى المجتمع الإسلامي السامي، إذ تخلق فيه جوّ اللّاأمن الفوضى كدراً قذراً، إفشاء للفاحشة في الذين آمنوا فجرأة جماعية على فعل الفاحشة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

(١) عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ في حديث: ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون يصب في أذنيه الأنك (الرصاص) يوم القيامة.

تَعْلَمُونَ﴾[١] ففيها تضييع لحق فردي وآخر جماعي، فما أفحشها فاحشة وما أنكاها.

ترى كيف يغتاب مؤمن أخاه وهو منه وبعضه؟ وكيف يتفكه باغتيابه كما هو شأن كل مغتاب؟ وما مشهد الاغتياب في الرزء والاكتئاب، إلا كأخزى مشهد تتأذى له أكثر النفوس خِسة وأقلها حساسية، وهو مشهد الأخ يأكل لحم أخيه ميتاً:

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؟:

فحب الغيبة تفكهاً يضاهي حب أكل لحم أخيك الميت، فالنيل من عرضه كأكل لحمه، وهو في غيابه، كأكل لحمه ميتاً[٢] أفلا تكرهونه؟ ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: ثالوث الكراهية العريقة في كل أحد وإن كان في أدنى درجات الإيمان، فلم يقل «فتكرهونه» كفعل مستقبل، وإنما ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، كماض، إيحاء بثبات هذه الكراهية: أن يأكل الإنسان لحم أخيه ميتاً، ثباتاً في الفطرة لكل أحد: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: عافته أنفسكم وإن كنتم جائعين غرثى.

وترى هل تحرم غيبة المؤمنين الموافقين لك في المذهب فقط، أم وكل

(١) سورة النور، الآية: ١٩.

(٢) الدر المنثور: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي أن سلمان الفارسي كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما، وأن سلمان نام نوماً فطلبه صاحباه فلم يجداه فضربا الخباء وقالا: ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما إداماً فانطلق فأتاه فقال: يا رسول الله ﷺ بعثني أصحابي لتؤدمهم إن كان عندك، قال: ما يصنع أصحابك بالأدم؟ قد ائتدموا، فرجع سلمان فخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله ﷺ فقالا: والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا، قال: إنكما قد ائتدمتما سلمان بقولكما، فنزلت ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحُجرَات: ١٢].
وفيه عن أنس أن الرجلين هما أبو بكر وعمر وفيه: بأي شيء ائتدمنا؟ قال ﷺ: بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين ثناياكما، فقالا: استغفر لنا يا رسول الله ﷺ؟ قال: مراه فليستغفر لكما.

مؤمن من أي مذهب؟ الحق هو الشمول، فإن الأخوة الإيمانية تشمل كافة المؤمنين، دون المنافقين، وإنما المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر أياً كانت مذاهبهم، إذ تجمعهم كلمة الإيمان، مهما تفَرقهم مذاهب الإيمان، فعليهم جميعاً أن يعتصموا بحبل الله ولا يتفرقوا، والغيبة من أشد أسباب التفرقة!.

إن حرمة الغيبة تحور على محور الأخوة الإسلامية الثابتة على غرار الآيـــة: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ...﴾[1] هذا! فضلاً عمن يأتي بأكثر من ذلك من شرائط الإيمان، ولا تعني التوبة هنا إلا عن الشرك بالله، ولا إقام الصلاة وإيتاء الزكاة الا الدخول في شريعة الله، إيماناً بالله وبرسول الله واليوم الآخر أم ماذا؟ على مختلف درجاتها، فإن الإيمان درجات كما الكفر دركات، فلا لك كمؤمن أن تواجه أخاك في الإيمان بلقب الشرك أو الكفر، بعدما حرم الله التنابز بالألقاب، فلا تجوز اغتياب مسلم غير منافق، موافقاً لك في المذهب أم غير موافق، اللهم إلا المتجاهرين بالفسوق، المستهترين في هتك حرمات الله، فليس لهم - إذاً - ستر حتى يهتك بالاغتياب، وإلا مَن الاغتياب دواؤه لكي يرتدع، أم دواء لداء عضال بين المجتمع الذي يعيشه، أم أية مصلحة راجحة توجب أو تسمح بالاغتياب، مراعياً هنا وهناك ألا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فإن السماح في اغتياب شخص لمصلحة، ليس لزامه السماح بإبطال هوية جماعية إسلامية، إذ يخلف جرأة المتقين أن يشذوا عن شريطة التقوى أحياناً، إذا وجدوا لهم رفاقاً، فالأصل الذي لا ينفصم هو الحفاظ على روح التقوى، والسياج على من يهوى الطغوى، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.



(١) سورة التوبة، الآية: ١١.

وترى هل للمغتاب من متاب، فإن تاب إلى الله وأناب كفاه الله وهداه توبة عليه؟ أم ولا بد من استرضاء صاحب الغيبة، وإلا فلا توبة؟.

إن التقوى بعد الاغتياب تتبع توبة من الله ورحمته، وكما في ذيل الآية:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾:

فما وجدت سبيلاً لإرضاء صاحب الغيبة فإليها أن يغفر لك فيستغفر لك، فلا ينفعك ولا استغفار رسول الله ﷺ ما لك سبيل إلى استغفار صاحبك وكما أمر ﷺ أبا بكر وعمر أن يطلبا من سلمان أن يستغفر الله لهما[١] وإلا فالإنابة إلى الله بتوبة نصوح، وأن تستغفر الله لأخيك يغفر الله لك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[٢] فهو هو الذي يرضي صاحبك برحمته ليرضى عنك، فيتوب الله عليك.

وهذه هي شيمة التقوى: ومن ثم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ بعدما تُبت إليه بشروطه، توبة منك إلى الله فتوبة من الله عليك: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾[٣] وكما أن توبتك إلى الله بحاجة إلى توبة أخرى من الله عليك: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُواْۚ﴾[٤] فالتوبة منك إذاً، وفي أي ذنب، هي بين توبتين من الله.

---

(١) كما مضى عن الدر المنثور من حديث سلمان مع أبي بكر وعمر وفيه عن ابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد وجابر قال رسول الله ﷺ: الغيبة أشد من الزنى - قالوا: يا رسول الله ﷺ، وكيف الغيبة أشد من الزنى؟ قال: إن الرجل يزني فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفرها له صاحبه.
أقول: هذا لو وجد إلى ذلك سبيلاً، والا فسبيله الاستغفار لصاحبه، ثم الله يطلب من صاحبه أن يغفرها له فيغفر كما رواه في الكافي بإسناده إلى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سئل النبي ﷺ ما كفارة الاغتياب؟ قال: تستغفر الله لمن اغتبته كما ذكرته.

(٢) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٣٩.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١٨.

ومن ثم - وبعد هذه التوصيات للمؤمنين بالنسبة لبعض - نتلفّت إلى ضابطة عامة في التفاضل لا فوقها ضابطة إلا حابطة ساقطة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾:

هتاف عام هام للإنسانية جمعاء، الصادرة من أصل واحد، أخذاً لها إلى أصالة واحدة لا تناكر فيها ولا تكاثر أو تنافر، هي أصالة ركزت لها كل رسالة إلهية - ألا وهي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

فـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ نداء بعيد تضرب إلى الغور، تناسياً كافة التفاضلات الموهومة بين الناس، تاركة كافة الألقاب الأرضية المختلقة، إلا واحداً هو من خلق الله: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وليحملهم خالقهم - على هذا الأساس - إلى شرعة الناس، على ضوء شريعة خالق الناس: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ حيث تتوارى كافة النزعات والمنازعات، وتتهاوى كافة القيم التي يتكالب عليها الناس: حيث الميزة الوحيدة في ميزان الله هي تقوى الله؛ التي لا يتكالب عليها الناس، وإنما الناس هم الذين يتشاجرون على سائر الميزات: الطغوى!. فكل ميزة وراء التقوى هي طغوى لا تزداد إلا حياة جهنمية فوضى.

إن لواء التقوى المرفرفة على الألوية كلها، العالية من على الأعالي في أرض الإسلام، إنها لا تسمح لألوية القوميات والعنصريات والإقليميات والطائفيات أن ترفرف أو تبقى لها باقية، اللهم إلا باغية يحاربها الإسلام، ويسميها رسول الإسلام ﷺ عصبية جاهلية، دعوها فإنها منتنة[1].

تلكم اللواء هي التي تلوي بأعناق المتجبرين المتكاثرين، الذين



(١) رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري عنه ﷺ: . .

يحملون رايات العصبيات العارمة، من قوميات عربية وسواها وكما خطب الرسول ﷺ يوم فتح مكة قائلاً: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، إن العربية ليست بأب والد، وإنما هو لسان ناطق، فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم من آدم وآدم من التراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم»[١].

وكما في خطبة الوداع: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ألا هل بلّغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ قال: فليبلغ الشاهد الغائب[٢].

إذاً فلا زاد لمسلم إلا تقوى الله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٣] دون سائر الزاد، اللهم إلا ما يسهِّل ويعبِّد سبيل زاد التقوى! وإنها نسب الله يرفعها الله، وفي يوم لا أنساب بينهم ولا يتساءلون[٤] نسب هو نبراس

(١) تفسير علي بن إبراهيم القمي عن رسول الله ﷺ: . .

(٢) الدر المنثور: أخرج ابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال: خطبنا رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال: . .
وفي أصول الكافي بإسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله ﷺ زوج مقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، إنما زوجه لتصنع المناكح وليتأسوا برسول الله ﷺ وليعلموا أن أكرمهم عند الله أتقاهم.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٤) مجمع البيان: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالى يوم القيامة: أمرتكم فضيعتم ما عهدت إليكم فيه، ورفعتم أنسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم.
وفي أصول الكافي بإسناده عن حنان بن عقبة بن بشير الأسدي قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: أنا عقبة بن بشير الأسدي، وأنا في الحسب الضخم من قومي؟ قال فقال عليه السلام: ما تمن علينا بحسبك، إن الله رفع بالإيمان من كان الناس يسمونه وضيعاً إذا كان مؤمناً، ووضع بالكفر من كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً فليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى. =